غلطة طبيب

١

بقلم : عبد الرزاق العائش

من القضايا التي اخطأ فيها القضاء خطأ فظيعاً وذهب فيها نفوس بريئة ؛ هذه القضية التي ذهب فيها ضحية « العدل الجائر » شاب في منتصف العقد الثالث من عمره وكادت تذهب فيها ضحية ثانية فتاة في العقد الثالث من عمرها لولم يكن لها بعد في الحياة نصيب .

لتقرير الطب الشرعي اهمية بالغة في الجرائم فاذا كان فيه خطأ كبير او صغير فانه يسبب شنق احد الابرياء . وهذا ماحدث في قضية « سعد » التي اقامت بلدة (ك) واقعدتها ومكث اهلها يتحدثون بها حقبة من الدهر . .

كان « سعد » اسميا عاملا في قرية « ن » ولكنه في الحقيقة لم يكن يعمل شيئاً بل كان ميالاً الى الكسل والخمول يترك امرأته « سلمى » تكد وتكدح لتأتيه بما ينعم به من ماكل ومشرب ، معتمداً على ماتدره عليها ماكنة الخياطة لكن مطالبها كانت اكبر مما تقدر عليه حتى كرهت العيشة معه وودت — في قرارة نفسها — لوانها تخلصت منه ولكنها رغم هذا كله كانت تجتهد في تنميق المظاهر لكيلا تبدو عليها وعلى زوجها الفاقة والاحتياج .

وكانا يسكنان في دار يملكها شاب يدعى « سالم » وقد ورثها عن ابيه ولم يكن له احد فكان ثالثها في المعيشة غير انه كثيراً ما كان يتشاجر مع « سلمى » لتأخرها عن دفع اجرة السكنى ثم لا يلبثان ان يسودهما الصفاء خصوصاً وان « سلمى » كانت من اسرة شريفة . ازرى بها الدهر وفوق هذا كانت على جانب عظيم من الصبر والأناة فتقابل دعونته بالحلم والرزانة .

وهكذا عاش الثلاثة زماناً حتى كانت ليلة ٢٨ رمضان سنة « كذا » ففكر سعد وسالم بمقتضيات العيد وجلسا يتحدثان في سرقة قمح من حقل الشيخ احمد القريب من القرية . وكانت سلمى تسمع حديثهما صامته وهي في نفسها مشمئزة من الاثنين تحتقرهما اشر الاحتقار ولكنها في الوقت نفسه تشعر بخوف من عاقبة الامر الذي يقدمان عليه .

وبعد لحظة تركهما الاثنان واتخذا سبيلهما في الظلام الى الحقل وهناك جعلا يجمعان القمح بسرعة ويملآن زكيبة كانت معهما ، فحملها سعد وعادا في حذر وحيطة وتقدم سالم على زميله بضع خطوات ليكتشف الطريق ؛ ولكنهما لم يسيرا غير مسافة قصيرة حتى سقط سعد صريعا على الارض والزكيبة فوقه فلما ايقن زميله بموته جرى لايلوى على شيء حتى وصل الى الدار فاخبر سلمى بموت زوجها ولكنها لم تبد جزعاً ولا اسفاً على فقده وا ارتأت ان تحفظ كرامة زوجها ميتاً وان هو لم يحفظها حياً . فاجمعا على ان يبعد اعنه وصمة السرقة وعلى هذا مشيا الى المكان الذي سنقط فيه فنقلا الجثة الى الدار ثم اخذت سلمى في البكاء والعويل تندب زوجها العزيز مدعية انه مات حتف انفه وقد تعاهدا على كتمان السر مهما كلفهما الامر .

الا ان اهل القرية كانوا يعلمون بسوء حياتهما معه لانه عالة عليها فلم تلبث الاقاويل ان انتشرت عنها وعن الشاب « سالم » وتجسمت هذه الاقاويل فصارت تهمة لهما بانهما سما سعداً . ووصل النباء الى السلطات فسارعت الى القبض عليهما .

وكان في المدينة طبيب يدعى « ماهر » حاز شهرة واسعة فيها وفي القرى المجاورة لان لم يكن هناك طبيب يدانيه فكان في نظر الجمهور بطل الاطباء والعجوبة الطب ومعجزة العلم . وقد عهد اليه المحققون فحص الجثة — وكانت قد اخرجت من قبرها — وبعد حين تقدم الطبيب المذكور بتقرير يقول فيه ويؤكد ان سعداً مات مسموماً بالزرنيخ .

ولما جاء يوم المحاكمة سمعت شهادة اناس كثيرين من أهل القرية قالو كلهم ان سلمى كانت تبغض زوجها من جراء كسله وخموله واضاف بعضهم « انى سمعت سالما يقول لسلمى اياك وكشف السر فاجابته ساجتهد في الكتمان فلا تخف » . وقال آخر : — انهما تآمرا عليه ليزيحاه عن طريق حبهما — . لكن اقوال الشهود لم تؤثر في القاضي « عادل » كما اثر فيه تقرير الطبيب « ماهر » فان هذا الطبيب — كما تقدم — ذا شهرة واسعة ومكانة رفيعة وقد اكد في الجلسة للقاضي وللمحلفين ان وجد في جسم سعد مقداراً من الزرنيخ

وكان ممن حضر الجلسة الطبيب « حازم » الذى كان فيما سبق جراحاً شهيراً ثم ترك الطب واشتغل بعلم النفس وعاش بعيداً عن المواسي والمقاريض عيشة هادئة لايهتم بغير تجوثه النفسية ؛ فلما سمع ماهراً يدلى بتقريره ادرك لاول وهله انه يبالغ ثم بعد ان سمع بقيه التقرير ايقن انه يبنى حكمه على غير علم وانه يرجم رجماً بالغيب . وعندئذ دفعه حبه للحق والعدل ان يكتب رقعة الى المحامي عن المتهمين يقول له فيها : — وجه اسئلة الى الطبيب « ماهر » عن تقريره » واستعد هو لان يوافي المحامي بالاسئلة الفنية التي

يظهر جهله وخطاءه البالغ في تقريره . ولكن في هذه اللحظة جاء اليه بعض ذويه واستدعوه الى منزله حالا لأمر هام فلم يستطع المحامي وحده ان يناقش تقرير الطبيب ، وصدر قرار المحكمة في ادانة المتهمين الاثنين ثم اصدرت حكمها باعدامهما . ولم تمض ايام حتى شنق سالم وكانت آخر كلمة نطق بها قسمه بانه بريء ؛ واما سلمى فقد ارجيء اعدامها حتى تضع حملها .

غير ان الطبيب « حازم » كان واثقاً من ان سعداً لم يمت مسموماً وقد آحزنه ان يعدم شاب بتهمة باطلة فسعى جهده لان يظهر براءته وان جاءت متأخرة وينجي المتهمة البريئة الاخرى . فذهب الى عمدة القرية وراح يمطره بوابل من الأسئلة عن تاريخ حياة كل من سعد و سلمى وسالم فعلم من اجوبته ان سعداً كان جباناً خاملا كسولاً وعلى الرغم من هذا كله كانت زوجته حسنة السلوك معه مخلصة اليه لاتهمها عذه العيوب مادام منزهاً ضميره عن كل جرم او جريرة . وان سالماً كان مستقيما مدي حياته لم يرتكب ولو جنحه صغيرة . ثم قابل محافظ المنطقة وطلب منه ان يطلعه على سجل الشكاوي فى ذلك التاريخ وما يليه فاطلع على ان الشيخ احمد اخبر مخفر شرطة القرية بتأريخ ٢٨ رمضان بانه عثر على زكيبة ملآى من القمح بالقرب من مزرعته وان القمح قد سرق من مزرعته . ولدى الكشف عثر المحققون على هراوة ملقاة على الارض بالقرب من الزكيبة ، على بعد بضع خطوات عثروا على علبة طباق وبما ان الشبهة لم تحم على احد حفظت الدعوى ومتعلقاتها .

فلما وصل الطبيب « حازم » الى هذه الحقائق قابل ولاة الامر وادلى برأي معقول فاصدرت المحكمة قرارها بفتح باب التحقيق في قضية سعد من جديد وهكذا اعيدت المحاكمة وعهد الى حازم فحص الجثة مرة أخرى ؛ فدله فحصها على ان سعداً مات بسكتة قلبية من جراء حمل ثقيل اثناء وجل شديد ؛ وان الزرنيخ الذي وجد بالجثة لم يأت الا من التربة التي دفنت بها لأن الطبيب ماهر لم يتخذ التدابير اللازمة لتطهيرها قبل الشروع بالفحص فتلوثت الامعاء اثناء عملية التشريح وهكذا تقدم بتقريره .

ولدى التحقيق ثبت ان الهراوة وعلبة الطباق كانتا تعودان لسعد وان التربة التي دفن بها كانت تحوي كمية من الزرنيخ . فاضطر ماهر ان يعترف بخطأه كما اضطرت سلمى ان تكشف السر . واخيراً اصدرت المحكمة حكمها ببراءة سالم بعد مرور شهر من شنقه وخرجت سلمى من السجن بعد ان وقفت هي وجنينها على حافة القبر

البصره — عبد الرزاق العائش

بريد البيان

ننشر نص الرسالة التي بعث بها الدكتور محمد غلاب من مصر الى سماحة العلامة الجليل الشيخ عبد الحسين الأميني حول كتابه — الغدير — في الكتاب والسنة والأدب وفيها أعرب عن حقايق ناصعة تبشر بفجر صادق يكفل لنا تقدير الآراء المذهبية الحقة والأعتراف بالحقايق التأريخية التي قاومتها العاطفة ردحا من الزمن واليك نص الرسالة :

تحيتي يقتادها تقديري ، وسلامي يدفعه إجلالي لعلماء العراق عامة ولاهل النجف الأشرف منهم خاصة ، وفي طليعتهم المؤلفون الأماجد امثالكم . وبعد : فقد تسلمت الجزءين الاول والثاني من كتابكم النفيس « الغدير » الذي شابه الغدير حقاً في صفائه ونفعه ؛ والذي يلفي الباحث فيه امنيته على نحو ما يجد المسافر الظامئ في الغدير ما ينقع غلته ، والذي عنيتم فيه بجانب هام من جوانب التراث الاسلامي ؛ متوخين الحقايق ، متتبعين الآثار الصادقة ، متعقبين مواطن الشبه بالتصحيح والنقد .

ونحن على يقين من ان الشباب العصري الاسلامي سيستفيد من هذه الثمار الشهية لاسيما ان اكثر ما يكتب اليوم غث خفيف الوزن ، تافه القيمة ؛ وان الحركتين العلمية والادبية قد تحولتا الى حركة تجارية بحتة .

ولقد جاءني كتاب حضرتكم في الوقت الملائم لأني عاكف على دراسة كثير من الجوانب الاسلامية وعلى التأليف فيها ولذا يعنيني كثيراً ان تنكشف امامي المبادئ الحقيقية ، والآراء الصحيحة للشيعة الامامية حتى لانكبو — بازاء هذه الفرقة الجليلة — في مثل ما كبا فيه ..... و .... وامثالهما من المحدثين المتسرعين ولقد تسلمت ايضاً قبل الآن بضعة كتب من علماء العراق في مبادئ الشيعة الامامية وآرائهم . و نسأل الله ان يوفقنا الى مافيه الرشاد ، وان يهدينا الى سبل السداد ، وان ينفع بما ننتجه الناطقين بالضاد . وتفضلوا بقبول احترامي .

الدكتور محمد غلاب

استاذ الفلسفة بكلية اصول الدين بالجامعة الازهرية بالقاهرة